النقد في عصر بني امية/إعادة بناء نص ماقبل الإسلام

يطلق العصر الأموي على الفترة التي تبدأ بخلافة معاوية سنة 41 هجرية وتنتهي بغلبة العباسيين على بني أمية وانتزاعهم الخلافة منهم سنة 132 هـ .

أهم ما يميز هذا العصر وتحديدا في عهد معاوية،عودة العصبيات القبلية وهيمنة الصراع حول الخلافة وانقسام العرب أحزابا وشيعا، وقد جرت التفرقة بين القبائل العربية وإرجاعها إلى ماكانت عليه قبل الإسلام.

فتراجعت المثل الإسلامية التي اشتغل عليها النبي (ص) لأجل بناء دولة إسلامية متماسكة .. وفي خلافة عبد الملك بن مروان اشتدت المعارضة ،وكثر المطالبون بالخلافة، واختلطت العرب بغيرها من الأجناس بسبب الفتوح.

في ظل هذه الظروف التاريخية الجديدة لم يكن الأدب والنقد بمعزل عنها، بل كانا لسان حالها تماما كما في عصر ماقبل الإسلام، فقد عادت الحياة الأدبية والنقدية إلى سالف عهدها، فقد استمال الأمويون هوى الشعراء وأشعلوا بينهم روح المنافسة مما يفسر كثرة الشعر في هذا الزمان، وخصوبة الحياة الأدبية التي أسست لنشوء مدارس نقدية متنوعة بتنوع بيئاتهاوهي ، مدرسة الحجاز والعراق والشام .أما ماعداها من بيئات كفارس واليمن ومصر والمغرب والأندلس فلم يظهر فيها في العصر الأموي مايستحق الذكر .

خصوصيات النقد في مدرسة الحجاز:

تغيرت الحياة كثيرا في بيئة الحجاز عما كانت عليه في صدر الإسلام، فقد سلطت الخلافة عليهم الترف وشغلتهم بالمال والعطايا . فكان من مظاهر ذلك شيوع الغناء ومجالسه، وكما كانت مجالس للغناء كانت للأدب أيضا يهذب فيها الشعر وينقح بما يتماشى والذوق العام ، فكان لكل هذا أثر في الانتقال بالحجاز من دور البداوة إلى دور الحضارة. . في هذه البيئة المترفة فترت دواعي الفخر والحماسة، وكاد يختفي الهجاء.وقل المدح لأن أغلب شعراء الحجاز في هذا العصر كانوا في رغد من العيش.

هيمن غرض الغزل الحضري؛ وفيه وصف للنساء صريح وخروج عن التقاليد القديمة، وكان عمر بن أبي ربيعة أول من مثل هذا الاتجاه فكان بمفرده يشكل مدرسة غزلية، فقد وقف شعره على غرض الغزل لم يتجاوزه إلى غرض آخر، مما جعلنا نصف عمله بكونه مدرسة بالنظر إلى مبدأ التخصص في هذا الغرض دون غيره من الأغراض الشعرية، فقد سأله سليمان ابن عبد الملك :مايمنعك من مدحنا ؟فقال عمر:إني لا أمدح الرجال ! إنما أمدح النساء.(أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، الجزء1 ص 21).

لعل أهم نقاد هذا العصر هم الشعراء والنقاد :

1-النقاد الشعراء :يعد نقد الشعراء بعضهم بعضا من أهم مظاهر النقد التي تجدر الإشارة إليها، كونها ساهمت بالقدر الملحوظ في بناء الفعل النقدي، خاصة أراء، نصيب بن رباح والفرزدق وحرير وجميل في عمر بن أبي ربيعة. ولعل أهمها على الإطلاق رأي الفرزدق حين سمع شيئا من تشبيب عمر فقال:^هذا الذي كانت تطلبه الشعراء فأخطاته وبكت الديار ووقع هذا عليه^.(أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج 1ص 12).

يعد رأي الفرزدق تأسيسيا لكثير من المحطات في تاريخ الشعر بقوله هذا ، فقد نسب نشأة الغزل إلى عمر بن ربيعة، كما أنه وضع حدودا بين الأغراض الشعرية من خلال تجاوزه التداخل بين الأغراض الشعرية الذي كان سائدا في الشعر ؛ ففي الحقيقة كانت الشعراء تمر بالمقدمة الطللية ووصف الظعن لتصل إلى وصف الحبيبة ثم وصف الممدوح ،رغم أن الهدف كان مدحا أو غزلا . فعمر بن أبي ربيعة تجاوز هذه المحطات حسب الفرزدق من خلاله ابتدائه بالغزل ، فقد تم تفكيك خطوات القصيدة وتجاوز محطاته وهذه سابقة لم يعرفها النقد والشعر من قبل.

كما حدثنا عبد الله بن مسلمة بن أسلم عن رأي جرير في عمر فقال :لقيت جريرا فقلت له :يا أبا حزرة ،إن شعرك رفع إلى المدينة ، وأنا أحب أن تسمعني منه شيئا ، فقال :إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومي ، يعني ابن أبي ربيعة ^(الأغاني ج1 ص23).

يلتقي جرير مع الفرزدق في الحديث عن تفرد عمر ابن أبي ربيعة في غرض الغزل ، فهو يعزي إليه ضمنيا نشأة الغزل وتفرده به إذ يبدو أن عمر استحدث فيه اتجاها جديدا غير مسبوق ، كما أنه يحيلنا على قضية المسؤولية التاريخية للأشكال الأدبية كما أوردنا في محاضرات متعددة ، حين يربط بين المدينة وغرض الغزل.

2- النقاد /عمر بن أبي عتيق:

يعد عمر بن أبي عتيق أهم شخصية ناقدة ظهرت بالحجاز ، اعتمد الدعابة والفكاهة أسلوبا في نقده متمثلا للروح الحجازية المرحة، وقد كانت بينه وبين عمر بن أبي ربيعة صداقة متينة .وقد قال فيه حين :^ ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق فقال :لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر ...فخذ عني ما أصف لك :أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله، وسهل مخرجه ،ومتن حشوه، وتعطفت حواشيه، وأثارت معانيه، وأعرب عن حاجته ^(الأغاني ج1ص 48).

لعله في هذا المقام يؤكد على قوة العاطفة في صناعة الشعر، كما يوضح لنا أن النقد في عصره بدأ يتجه نحو الأحكام المعللة ،فهو بهذا الشكل كأنه يحكم لعمر بالفحولة الشعرية دون إصدار حكم وإنما مع إيراد الأسباب في التفضيل بتحديد الخصائص الشعرية. ^فمنها مايمت إلى المعاني، ومنها مايمت إلى الألفاظ ومنها مايمت إلى إصابة الغرض ،وهذا كلام أشبه بكلام النقاد المحدثين في المعاني والألفاظ ^(عبد العزيز عتيق تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية بيروت .). بدأ النقد انطلاقا من نقد ابن أبي عتيق نحو تقديم التعليل متجاوزا بذلك الأحكام الإنفعالية الغير مؤسسة.

3-المفاضلات والموازنات بين الشعراء:

انتقل النقاد في هذا الباب الى موازنات مختلفة عما كان سائدا ، ويمكننا توضيح ذلك من خلال هذا الحدث الذي رواه صاحب الأغاني فقال : عن مسلم بن وهب قال :دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفل بن مساحق وإنه لمعتمر ، إذ مررنا لسعيد بن المسيب في مجلسه ، فسلمنا عليه فرد سلامنا ، ثم قال نوفل ، يا أبا سعيد من أشعر ، أصاحبنا أم صاحبكم ؟ يعني عبيد الله بن قيس الرقيات أو عمر بن أبي ربيعة؟فقال نوفل :حين يقولان ماذا ؟فقال حين يقول صاحبنا :خليلي مابال المطي كأنما نراها على الأدبار بالقوم تنكص؟

ويقول صاحبكم ماشئت ،قال :فقال له نوفل : صاحبكم أشعر بالقول في الغزل أمتع الله بك ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر، قال صدقت ..^(الأغاني ج 4 ص 318).

نستنتج من هذا الحدث أن النقاد في عصر بني أمية أنشأوا موازناتهم وفق تنوع القول أو الغرض الشعري، فقد حكم لعمر بأنه أشعر في الغزل ولابن قيس بأنه أكثر أفانين الشعر/تعدد الأغراض الشعرية

ومن المفاضلات ماجاء غير معلل دون إيراد العلل والأسباب ، كتفضيل كثير لجميل على نفسه ، واتخاذه إماما في الشعر ؛^قال جريرية بن أسماء :مااستنشدت كثيرا قط إلا بدأ بجميل وأنشدني له ثم أنشدني بعده لنفسه، وكان يفضله ويتخذه إماما ^(الأغاني ج 4 ص 321)، فقد ظلت المفاضلات تخضع للذوق الفطري والأهواء.

الخصوصيات النقدية في مدرسة العراق:

كانت العراق مركز المعارضة الأموية ضد خلافة الشام ؛تمثلت في حزبين مهمين هما حزب الخوارج وحزب الشيعة ، وكان لكلا الحزبين شعراؤه الذين أخذوا على عاتقهم الثورة ضد الأمويين الغاصبين للخلافة، التي يراها العلويون حقهم. فكانت العراق بيئة الشعر السياسي والقبلي، الذي مثله تحديدا الفرزدق وجرير والأخطل والراعي وذو الرمة والقطامي، ممن عرفوا بفحول الشعراء في عصرهم، فهم من البادية فيها أقاموا ونشئوا . لعل هذا ما يفسر حيثيات واقعهم وتموقعهم ضمن خانة للشعر دون أخرى،فقد ظلت البادية مسيطرة عليهم بروحها وأسلوب الحياة فيها،التي تغلب عليها حياة الجاهلية،^فهم إلى حد ما متحللون من الشعائر الدينية، ينزعون الى الحرية البدوية ، ولا يتورعون عن المجاهرة بدوافع الشهوات والنزوات الإجتماعية والأحقاد القبلية .^(عبد العزيز عتيق تاريخ النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص 153).

دار شعرهم حول غرض المدح والهجاء والفخر بدافع العصبية القبلية.

كانت سوق المربد مكانا لمعارضاتهم ومنافساتهم الشعرية، فيها تعقد مجالس العلم والأدب، فقد ساعدت النهضة الشعرية على نهضة النقد، وكذلك النهضة العلمية التي تمثلت في مدرستي الكوفة والبصرة . وقد اهتم بنقد الشعر الشعراء أنفسهم والرواة والنحاة والخلفاء والأمراء ولعل أهم أغراض الشعر هيمنة وتمركزت غرض الهجاء تلاؤما مع الصراع السياسي الذي كان سائدا.

كانت العراق مركز المعارضة الأموية ضد خلافة الشام ؛تمثلت في حزبين مهمين هما حزب الخوارج وحزب الشيعة ، وكان لكلا الحزبين شعراؤه الذين أخذوا على عاتقهم الثورة ضد الأمويين الغاصبين للخلافة، التي يراها العلويون حقهم. فكانت العراق بيئة الشعر السياسي والقبلي، الذي مثله تحديدا الفرزدق وجرير والأخطل والراعي وذو الرمة والقطامي، ممن عرفوا بفحول الشعراء في عصرهم، فهم من البادية فيها أقاموا ونشئوا . لعل هذا ما يفسر حيثيات واقعهم وتموقعهم ضمن خانة للشعر دون أخرى،فقد ظلت البادية مسيطرة عليهم بروحها وأسلوب الحياة فيها،التي تغلب عليها حياة الجاهلية،^فهم إلى

حد ما متحللون من الشعائر الدينية، ينزعون الى الحرية البدوية ، ولا يتورعون عن المجاهرة بدوافع الشهوات والنزوات الإجتماعية والأحقاد القبلية .^(عبد العزيز عتيق تاريخ النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص 153).

دار شعرهم حول غرض المدح والهجاء والفخر بدافع العصبية القبلية كانت سوق المربد مكانا لمعارضاتهم ومنافساتهم الشعرية، فيها تعقد مجالس العلم والأدب، فقد ساعدت النهضة الشعرية على نهضة النقد، وكذلك النهضة العلمية التي تمثلت في مدرستي الكوفة والبصرة وقد اهتم بنقد الشعر الشعراء أنفسهم والرواة والنحاة والخلفاء والأمراء ولعل أهم أغراض الشعر هيمنة تمركزت غرض الهجاء تلاؤما مع الصراع السياسي الذي كان سائدا، فقد ذكر الأغاني ^أن الفرزدق قدم المدينة في سنة مجدبة فمشى أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له :أيها الأمير إن الفرزدق قدم مدينتنا في هذه السنة الجدبة التي أهلكت عامة الأموال التي لأهل المدينة، وليس عند أحد منهم مايعطيه شاعرا ،فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولاهجاء . فبعث إليه عمر ،إنك يافرزدق قدمت مدينتنا في هذه السنة الجدبة ، وليس عند أحد مايعطيه شاعرا ، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم فخذها ولاتعرض لأحد بمدح ولا هجاء فأخذها الفرزدق^(الأغاني ج11ص 103-104).

ولعل أهم مايمكن تسجيله حول حركة النقد في العراق قيامه على المفاضلات، قامت على الذوق الفطري بالأخص التي كانت بين الشعراء ،فالفرزدق يرى أنه وجرير يستمدان شعرهما من نبع واحد ، وأن شعره في حملته أقوى من شعر جرير ، وفي ذلك يقول الفرزدق :إني وإياه لنغترف من بحر واحد ....أما الأخطل عند الفرزدق فأمدح العرب (الأغاني ج8ص 27). كما أثر عن جرير بعض الأخبار التي عين فيها أشعر الناس في رأيه ،من هذه الأخبار أن ابنه عكرمة قال:قلت لأبي ياأبة ، من أشعر الناس؟ فقال الجاهلية تريد أم الإسلام ؟قال:قلت أخبرني عن الجاهلية ،قال:شاعر الجاهلية زهير ،قلتوفلإسلام ؟قال :نبع الشعر الفرزدق ،قلت فالأخطل ، قال يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الخمر ،قلت فما تركت لنفسك ؟ قال :دعني فإني بحرت الشعر بحرا (الأغاني ،ج 7ص 380+ 381) .

يتضح لنا أن النقد في مدرسة العراق كان نقدا انفعاليا ذاتيا يقوم على المفاضلات ، قريب إلى نقد عصر ماقبل الإسلام ، فهو نقد نشأ في البادية يميل إلى الفطرة والإنفعال .

.3خصوصيات نقد مدرسة الشام:

يمكننا أن نبني منذ الوهلة الأولى فكرة واضحة المعالم حول النقد في مدرسة الشام ،فلا نكاد نرى لها ملامح خاصة أوسمات محددة .

لايوجد للشام شعراء إلا شاعرا كعدي بن الرفاع العاملي وإن كان لايستطيع أن يرتفع بشعره إلى مستوى شعراء الحجاز والعراق كجرير والفرزدق والأخطل كما أوضح ذلك عبد العزيز عتيق (تاريخ النقد الأدبي عند العرب).أو ما وفد إلى بيئة الشام من شعراء من مناطق أخرى، أو ما أثر لبعض خلفائها كشعر الوليد بن يزيد في الغزل والخمر .

وقد غلب عليها غرض المدح باعتبارها مركز الخلافة الأموية والعطايا ،فقد كانت مكانا التكسب ، ولعل أهم النقاد هم :

النقاد الخلفاء والأمراء :

يعد عبد الملك بن مروان أهم نقاد عصره، حدثنا الأغاني مرة أن جريرا والأخطل أتاه راغبان في وصف الخمر فقال لهما دعوا هذا فأنشده جريرا ثلاث قصائد في الحجاج يمدحه ،ثم طلب من الأخطل أن ينشده فقال :

شمس العداوة حتى يستفاد لهم

وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقال عبد الملك : إن لكل قوم شاعرا وإن الأخطل شاعر بني أمية.(الأغاني ج7ص 319).

نستنتج أن عبد الملك كان مأخوذا بالمدح دون غيره من الأغراض الشعرية ، وهو الغرض الأكثر انسجاما مع بيئة الشام.

كما روى الأصمعي عن خالد بن كلثوم أن عبد الملك بن مروان قال الفرزدق :من أشعر الناس في الإسلام ؟قال :كفاك بابن النصرانية إذا مدح (الأغاني ج7ص329).

إذ يفضل الفرزدق الأخطل على شعراء العصر الإسلامي في فن واحد من فنون الشعر وهو غرض المدح ، فمسألة التخصص في غرض شعري دون غيره غدت في هذا العصر قاعدة من قواعد الذوق .